من تراب الطريق (٣٧٠) مئوية محمد عبدالله محمد(*)

فى أكتوبر ٢٠٠٨ ، حلت مئوية ميلاد الأب الروحى صاحب الأفضال التى لا تعد ولا تحصى ، الأستاذ المحامى الفقيه الضليع ، والمفكر الأديب ، والشاعر الحكيم : محمد عبد الله محمد . صاحب الباع الكبير فى القضاء والمحاماة ، وأول دفعة حقوق القاهرة سنة ١٩٣٠ فى دفعة من المتميزين كان ثانيه عليها المرحوم الأستاذ الشهير الدكتور / زهير جرانة . بدأ حياته فى القضاء ، فكان متميزًا وسط المتميزين ، وشغل موقع المحامى العام لنيابة النقض الجنائى ، شف عن نبوغ فريد منذ بداياته ، وله تعليقات بالعربية والفرنسية على بعض أحكام محكمة النقض المنشورة فى المجموعة الشهيرة التى جمع أحكامها المرحوم محمود عمر باشكاتب محكمة النقض فى الزمن الأول ، وصدرت فى سبعة مجلدات للأحكام الجنائية ، ومثلها للأحكام المدنية ، بعنوان : مجموعة القواعد القانونية لأحكام محكمة النقض .. هذه المجموعة التى ضمت أسباب الأحكام التى كتبها عمالقة القضاء ومحكمة النقض أمثال عبد العزيز باشا فهمى ، وحامد باشا فهمى ، ومحمد بك لبيب عطية ، وأحمد بك أمين ، ومصطفى باشا محمد ، وعبد الفتاح السيد بك ، وجندى بك عبد الملك وأترابهم .. والتعليق على أحكام لهؤلاء العمالقة عمل كبير لا يتصدى له إلاَّ عملاق فى وزن الفقيه الفذ الأستاذ محمد عبد الله محمد .

(*) المال٩/ ١٢/ ٢٠٠٩

قدم هذا العملاق للمكتبة القانونية كتابا لا يزال بلا نظير حتى اليوم .. هو «فى جرائم النشر» (حرية الفكر ـ الأصول العامة ـ جرائم التحريض) ، ومع أن هذا الكتاب قد نشر فى عام ١٩٥١ ، فإن أحدًا على مدى ما يزيد على نصف قرن ـ لم يستطع أن يضارع أو يقترب من المستوى الرفيع الذى قدمه محمد عبد الله محمد فى هذا الكتاب . كتب أيضا : «بسائط علم العقاب» وأملاه على طلبة الدراسات العليا فى مذكراته التى أعيتنى الحيل فى محاولة الوصول إليها لنشرها على عشاق القانون الذين لا يزال كبارهم يجلّون هذا العلامة الكبير .

لم يكن محمد عبد الله محمد فقيهًا ضليعًا أو محاميًا عظيمًا وكفى ، وإنما كان مفكرًا موسوعيًّ من طراز فريد ، وأديبًا من مدرسة تنتمى إلى ضبط الكلمات والمعانى . وشاعرًا حكيمًا ظل يكتب الشعر لنفسه ، ولا ينشره ، نحو سبعين عاما .. أتاح لى مخطوطاتها التى أذهلتنى كما أذهلت مجموعة الأصدقاء فى ندوتنا الأدبية التى كانت تعقد فى بيت الصديق الحبيب الأديب الكبير فاروق خورشيد ، وانتقلت إلى منزلى بعد رحيله .. ولم يتركنى أعضاء الندوة بعد أن سمعوا جانبا من شعره العمودى المتميز المفعم بالحكمة ، إلاّ على عهدٍ بأن أتابع نسخ هذه الأشعار ثم طباعتها ، وقد فعلت بعد مجاهدة مع الأستاذ محمد عبد الله حتى قبل نشرها فى ديوان «العارف» ثم ديوان «الطريق» ..

ما كان للرجل أن يصبر سبعين عامًا وزيادة على نظم هذا الشعر الرائع الرصين ، والاحتفاظ به دون عرض ، مالم يكن عائشًا فى الواقع والحقيقة خارج عالم الذات ، منصرفًا عما يغرق ويتصارع فيه الناس من أجل

الظهور وطلب الصيت والمكانة واستقبال الإطراء والإعجاب .. نفهم هذه القدرة حين نتأمل فلسفة هذا العملاق الفذ الشاخصة فى تضاعيف ما كتبه من أشعار ، وفى باقى ما صاغه من مؤلفات وبحوث ومقالات .

من درره الفريدة ، مقالات كتبها لمجلة رسالة الإسلام فى «معالم التقريب» بين المذاهب الإسلامية .. جمعتها له فى كتاب نشرته دار الهلال (مارس ١٩٨٩) .. والتقريب اتجاه جاد داخل الإسلام ، مجرد تماما من اللون الطائفى أو الإقليمى للتخلص من العداوة المعلنة أو الخفية ، بين أهل المذاهب ، وتذكيرهم بأن إله الجميع واحد ، وكتابهم واحد ، ونبيهم واحد ، وقبلتهم واحدة ، وهذا هو رأس مال المسلم .

كان من حظى أن اقتربت من هذا العملاق ، صاحبته ولم أفارقه لربع قرن لم أنقطع عن الجلوس إليه والتأمل معه والتلقى منه وعنه .. كان دوحة لا تفرغ رطبها الجنية ، صاحب موقف من الحياة .. لم تفلت منه قط حكمتها وغايتها واغتنام أيامها لمزيد من التأمل ومن الفهم .. أبحر الرجل فى عوالم شتى فصار عالما فى القانون ، والأدب ، والفكر ، والفلسفة ، والفلك ، والتاريخ ، والأديان .. تحس وأنت معه أنك مع موسوعة معارف حية ، ليس حسبها ما اكتنزته من معلومات هائلة فى بحور شتى بلا شطآن ، وإنما تدرك فى كل عطفة أن شيئًا لم يمر على هذا المحامى العلامة المفكر الفيلسوف دون أن يعمل فيه نظره ومبضعه ويشرّحه ويغوص فى صحبته إلى الجذور والأعماق حتى تكشف له أستار من المحال أن تنكشف لسواه ..